(بحث مهم في بيان حُجِّيَّةِ فهم الصحابة وحجية أقوالهم وأعمالهم)

منقول في كتابي إسعاف السؤول بشرح ثلاثة الأصول من لمجلد الثاني.

فهم الصحابة حجة، وأقوالهم حجة تفسير للسبيل:

واعلم رحمك الله، أن قول الصحابة حجة قاطعة في فهم الدين، إذ أن القول الذي يجتمعون عليه - رضي الله عنهم -، أو يتكلم به بعضهم - رضي الله عنهم -، ولا يختلف عليهم الآخرون - رضي الله عنهم -؛ يُمَثِّلُ سبيل المؤمنين، والفهم الصائب لهذا الدين العظيم، فقد بين الله تعالى أن للمؤمنين سبيلا وأمرنا باتباعها، والتسليم لهم في ذلك، وهذه السبيل هي في مقابلة سبيل المجرمين.

واعلم أرشد الله لطاعته، أن الأمر المقطوع به في القرون المفضلة أن قول الصحابي حجة في فهم الدين، بالضابط المتقدم ذكره، وأن القول بعدم حجية أقوال الصحابة - رضي الله عنهم -، ما هو إلا لَوْثَةٌ كلامية، اعتزالية، وما يروى عن الشافعي في ذلك، غلط عليه، فقد صرح في مواضع من كتبه بحجية قول الصحابي الذي لم يختلف عليه فيه.

السؤال الكبير الذي يفرض نفسه، في مثل هذه المقامات الكبار:

أنخاف على الأمة من الزيغ والضلال، إن حَمَلْنَاهُم على أقوال الصحابة رضي الله عنهم، في فهم الدين والعمل به، وفهم الأدلة وتنزيلها؟!!.

خِبْنَا والله إذَن وخَسِرْنَا، خِبْنَا والله إذَن وخَسِرْنَا!!.

شهداء الله في أرضه:

فَلْنَرْفُق بأنفسنا، فلن نَسْبِقَ القوم إلى فضيلة، ولن نَبُزَّهم في فهم هذا الدين والعمل به، فما بقي إلا أن نعمل بما أوصانا به ربنا تبارك وتعالى، حيث قال: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٣٧]، وقوله: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥]، فالصحابة هم أصول الشهداء في أرض الله تعالى من هذه الأمة، كما في الصحيحين من حديث أنس - رضي الله عنه - قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه:"مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ".

وفي صحيح مسلم من طريق سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - ثُمَّ قُلْنَا لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ - قَالَ - فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ:"مَا زِلْتُمْ هَا هُنَا". قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ قَالَ:"أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ". قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ:"النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ".

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَال:"خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ". وسيأتي مزيد بيان لذلك؛ لخطورة المسألة، ودخولها في جميع الدين.

واعلم غفر الله لي ولك، أن أهل البدع لم يُعْوِزْهُم الاستدلال على غالب بِدَعِهم، فأنت تراهم يتكلمون بأدلة من الكتاب والسنة، ولكنهم أرادوا فهما على أهوائهم، وهنا يستبين لنا أهمية سبيل المؤمنين.

فالإسلام هو الدين الذي كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضي الله عنهم -، وهو ما تلقاه الأئمة عن الصحابة.

فالإسلام الشرائع، والسبيل هو بيان كيفية فهمها وكيفية العمل بها وتنزيلها، وهنا يَنْخَزِمُ الهوى ويظهر الهدى، ويتميز الحق من الباطل في الأقوال والآراء والاجتهادات.

فلا يَنْفَكَّانِ أبدا؛ وإلا كانت المشاقة والضلالة، عياذا بالله منها، قال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥]، فالآية ذكرت الهدى ثم عطفت ببيان السبيل المتبعة فيه.

وإلا فإن لغة العرب واسعة، والمعاني متكاثرة لا تكاد تنحصر، وبعضها أضداد، وهنا يظهر سبيل المؤمنين؛ ليرد الناس إلى جادة الطريق، وسواء السبيل.

والمُشَاقَّةُ لهم تكون بفهم الدين على غير فهمهم، والتعامل معه ومع أدلته بغير طريقتهم، وهو هدي النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي ربى عليه أصحابه، وشهد لهم بالخيرية ثم لقرنين.

وأمرنا باتباعهم بإحسان، كما قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:١٠٠].

المطلوب اتباع الصحابة بإحسان لا بإساءة:

واتباعهم بإحسان، أيضا هو في عدم مشاقة سبيلهم، لا في طرح فهمهم للأدلة، ومقارعة عقولنا لعقولهم، واجتهاداتنا لاجتهاداتهم، إذ ذاك هو الاتباع بإساءة لا بإحسان، والمعنى أنه انتساب صوري إلى سبيلهم، مع الإمعان في مشاقتهم في فهم الدين وتنزيله.

فما قبض الله نبيه حتى أنزل سبحانه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣]، فما كان عندهم دين فهو الدين وإلا فإنما هو اتباع الهوى وترك الهدى الذي كانوا عليه حتى قال تعالى عنهم في مواضع: {رضي الله عنهم}.

فالذي يريد أن يجعل فهم النصوص، كل بحسب ما أدَّاهُ إليه اجتهاده؛ هو مُشَاقٌّ لسبيل المؤمنين، بل وهذا من أعظم أسباب فساد الدين؛ بل والوقوع في الزندقة، وفتح بابها؛ ولهذا تجد أئمة هذا الدين في زمان السلف يردون إلى فهم الصحابة.

الأدلة على وجوب الاعتداد بفهم الصحابة وعلومهم:

وتأمل ما كان عليه المسلمون في فهم الدين، وتَبَيّن حقيقة ما ترمي به الأهواء على أفواه وقلوب البعض.

ففي صحيح مسلم من طريق يحيى بن يعمر، قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين - أو معتمرين - فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، ..... الحديث.

هكذا علموا أن الدين ليس ليلا يَحْطِبُ فيه كل حاطب، بل هو نهار نستبين فيه سبيل المؤمنين.

وكم من الأذكياء والحفاظ خانهم ذكاؤهم وحفظهم لما أرادوا أن يفهموا النصوص على سبيل أنفسهم لا على سبيل المؤمنين.

سبب ضلال الفرق بسبب التَّنَكُّر لفهم الصحابة - رضي الله عنهم -:

فهؤلاء القدرية لم ينقصهم النص، حتى نقول إن الاحتجاج كان بمجرد ذكر أدلة القدر لهم في خبر ابن عمر المتقدم، ولكن كان ينقصهم كيفية الإيمان بالقدر، فإن لفظة القدر، مجملة ولها معان، وهذا ما أراده يحي وصاحبه.

فليس المشكلة عند أهل البدع أنه ليس عندهم لفظ الدليل، ولكن مشكلتهم في فهم الدليل.

ولاحظ بارك الله فيك، كيف أن يحيى بن يعمر، وحميد بن عبد الرحمن الحميري، لم يفرقا بين أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -، بل علموا أنهم مهما وجدوا أحدا منهم؛ فقد حصلوا على المطلوب، فكلهم عدول، وكلهم عامل بما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وما رَبَّاهم عليه؛ ولهذا قالا: [لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر].

هكذا كان السلف يعلمون علم اليقين، أن للمؤمنين سبيلا وطريقة في فهم هذا الدين العظيم، وأن هذه السبيل هي ما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضي الله عنهم -.

وهنا خبر آخر جليل القدر فتأمله، وانظر كيف أن أبا سعيد الخدري - رضي الله عنه -، بَيَّنَ بل وجَزَمَ، أن الصحابة - رضي الله عنهم - هم الأحق بفهم الدين، وأنه لم يقل للسائل: عليك أن تفهم على اجتهادك، فنحن رجال وأنتم رجال.

ففي صحيح مسلم من طريق أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: اعتكف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - العشر الأوسط من رمضان، يلتمس ليلة القدر قبل أن تبان له، فلما انقضين أمر بالبناء فقوض، ثم أبينت له أنها في العشر الأواخر، فأمر بالبناء فأعيد، ثم خرج على الناس، فقال:"يا أيها الناس، إنها كانت أبينت لي ليلة القدر، وإني خرجت لأخبركم بها، فجاء رجلان يَحْتَقَّان معهما الشيطان، فنسيتها، فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان، التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة"، قال قلت: يا أبا سعيد، إنكم أعلم بالعدد منا، قال: [أَجَلْ نحن أَحَقُّ بذلك منكم]، قال قلت: ما التاسعة والسابعة والخامسة؟ قال: [إذا مضت واحدة وعشرون، فالتي تليها ثنتين وعشرين وهي التاسعة، فإذا مضت ثلاث وعشرون، فالتي تليها السابعة، فإذا مضى خمس وعشرون فالتي تليها الخامسة].

فتبين أنه لابد للعبد لفهم هذا الدين، من أن يرجع إلى فهم الصحابة، وهذا متكاثر جدا من عمل التابعين والسلف وأقوالهم، وإلا وقعنا في الضلال والانحراف.

وهذا ما جرى مع جميع طوائف الضلال، حيث لم يحذروا من اتباع الأهواء والآراء، ولم يلتفتوا إلى سبيل المؤمنين، ومن هؤلاء الخوارج، الذين حذر النبي - صلى الله عليه وسلم - منهم، وتأمل هذا الخبر:"يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية". وما ضل من ضل إلا من جهة عدم فهم الدليل على طريقة الصحابة.

فما من عالم إلا وقد رضي عن عقله وفهمه، ولكن الشأن أن يعلم العالم أن فهم الصحابة فوقه، وهو المقصود، لا فهم نفسه، وإلا كان الكبر المبطن، أو الإزراء المبطن، فمن هذا الذي ارتضينا فهمه وطرحنا معه فهم الصحابة؟!!.

المرجعية عند الاختلاف في فهم الأدلة:

فقبل الخوض في أي مسألة من مسائل الشرع، أو الدخول في نقاش، أو مناظرة مع مخالف لك، لابد ابتداء أن تَتَحَدَّدَ المرجعية لفهم الأدلة، فإن لم تكن هذه المرجعية هي الصحابة ومن تبعهم بإحسان، وإلا كان ضياعا للوقت، وإزراء بالسلف الخوض مع المخالف لك في هذا الأصل، بل هو طريق الزندقة والضلال عياذا بالله.

ولنحذر من سبيل المنافقين الذين قال الله تعالى في شأنهم: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة:١٣]، فما كان من المنافقين إلا أن احتقروا إيمان المؤمنين، وأنِفُوا عن سبيلهم، فلنكن على حذر شديد من التشبه بأعداء الله تعالى.

وإليك بيان معنيين مهمين:

واعلم أرشدك الله، أن قوله - صلى الله عليه وسلم -:"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"، يدل على أمرين هامين:

أحدهما: أنه لا أحد من العباد أكبر من الحق الذي جاء النبي - صلى الله عليه وسلم -، فمهما عَظُمَ العبد علما وتقى وورعا، قولا وعملا، فالواجب علينا أن نَرُدَّ خَطَأه إذا أخطأ، ولا نتعاظم ذلك أبدا.

والثاني: أن أمرهم المذكور هنا، المقصود به سبيل المؤمنين، وهو ما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضي الله عنهم -، والمعنى أن السبيل أصبحت واضحة المعالم، مَنْشُورَة الأعلام، قد أحيطت بِسِياجٍ مَنِيع، لا يُقْبَل فيه تخليط ولا تلبيس، وليس فيه شيء من ذلك البتة.

تنبيه مهم:

وإذا أردت أن تقف على طرف من خطورة هذه السبيل، وأهميتها في نفي الضلال، واستبانة الصراط المستقيم، فعليك أن تعلم أنه ما من سبيل إلى رد كلام أصحاب الأهواء، من الأشاعرة والجهمية والمرجئة والمعتزلة وأشباههم، إلا بمحاكمتهم إلى ما كان عليه الصحابة - رضي الله عنه -، من فهم هذه النصوص التي يحتجون بها، إذ لغة العرب كما تقدم واسعة، وكل يدعي الفهم والإدراك، فما من سبيل للرد عليهم إلا بالرجوع إلى عمل الصحابة وتعاملهم مع هذه المسائل الشرعية، وتلك الاستدلالات التي يتلاعب بها هؤلاء المبطلون]. انتهى.